التداخل الأسلوبي في مفضلتي أبي ذؤيب ومتمم بن نويرة العينيتين الرثائيتين
-قراءة مقارنة-

the Stylistic Overlap in two Chosen Elegiac poems of abu dhu'ib and muttamam ibn nuwayrah
-Comparative Reading-

د. أبو بكر احميد
أستاذ مؤهل في الأدب واللغة
بجامعة العلوم الإسلامية بلعيون- موريتانيا

Dr. Aboubekrine Hmeyid
Qualified professor of literature and language
University of Islamic Sciences in Aioun, Mauritania

aboumd4@gmail.com

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
٢٠٢٣/٣/٢٣	٢٠٢٣/٤/٩

الكلمات المفتاحية: التداخل، الشعري، الأسلوب، أبو ذؤيب، ابن نويرة

Keywords: Style, lamentation, Abu Dhu'ib, Ibn Nuwayrah, poetry, comparison

الملخص

تناولت في هذا البحث قصيدتين من عيون الرثاء العربي القديم، لشاعرين مخضرمين مشهورين، هما أبو ذؤيب الهذلي، ومتمم بن نويرة اليربوعي. وقد بذلت جهدي في تقديم قراءة تحليلية لقصيدتيهما الرثائيتين العينيتين، فاعتمدت الوصف والتحليل للتوقف عند أساليب الرثاء التي اعتمدها الشاعران، ونهجهما الذي سلكاه في بناء المعاني الشعرية المؤثرة؛ والمعبرة عن عمق الفاجعة التي عاشها الشاعران بعد رحيل من يرثونهم بهاتين القصيدتين الباكيتين.

ولئن كانت القصيدتان قد اختلفتا في تسلسل مقاطعهما الشعرية وترتيب المعاني الرثائية وبنائها، بين اعتماد السرد، كما في رثائية متمم، واعتماد القصص، كما في رثائية أبي ذؤيب، لكنهما اتفقتا في رسم صورة عميقة لحقيقة الموت والفناء، فتجاوزتا بذلك وصف أثر الفجيعة إلى وضع تصور فلسفي مؤثر عن حتمية الفناء وعبثية التشبث بالحياة والسعي إلى النجاة من الموت.

ورغم اختصار هذه القراءة، فإنها أنارت بعض الغموض في هاتين الرثائيتين الخالدتين، وكشفت جانبا مهما من سرّ تميزهما الفني، وخلفية إجماع النقاد القدماء على تقديمهما على سائر نصوص الرثاء العربي القديم.

Abstract

In this research, I dealt with two poems of the most famous ancient Arab lamentations, by two well-knownand seasoned poets, namely Abu Dhu'ib Al-Hudhali and Mutamim bin Nuwaira Al-Yarbu'i. I did my best to provide an analytical reading of their two elegiac poems. Thus, I relied on description and analysis to trace the methods of lamentation adopted by the two poets and their approach in constructing the deep poetic meanings that express the depth of the tragedy experienced by the two poets due the death of those whom they lamented.

The two poems differed in the sequence of their poetic segments and the arrangement and construction of the elegiac meanings, between relying on narration, as in the poem of Mutamamm, and relying on stories, as in the poem of AbiDhu'ib. However, they agreed in drawing a deep image of the reality of death and annihilation, so they went beyond describing the impact of bereavement to developing an influential philosophical vision on the inevitability of annihilation and the absurdity of clinging to life and striving to escape death.

Despite the brevity of this reading, it shed some light on the ambiguity in these two immortal poems, and revealed an important aspect of the secret of their artistic excellence, and the reason for the consensus of the ancient critics in praising them over the rest of the ancient Arab lamentation texts.

المقدمة

عُدت قبل مدة لمطالعة كتاب المفضليات للمفضل الضبي، وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، وقد استوقفتني فيهما جملة قصائد رأيت أنها تستحق القراءة النقدية لاستكشاف علاقاتها الفنية وقيمتها الأدبية. فسعيت في هذا البحث إلى قراءة مقارنة تستجلي التداخل الأسلوبي بين قصيدتين رثائيتين من عيون الرثاء القديم، وردتا في الكتابين المذكورين، فاخترت العينيتين الرثائيتين المفضلتين لأبي ذؤيب الهذلي، ومتمم بن نويرة اليربوعي.

ولئن كان كتاب المفضليات واسع الشهرة، كثير الانتشار، فإن كتاب "جمهرة أشعار العرب" مشهور أيضا، فهو –وإن كان أقل شهرة من المفضليات– يعد كتابا "عظيم النفع، غزير الفائدة.. يشتمل على مقدمة أدبية نقدية، وتسع وأربعين قصيدة من فرائد الشعر الجاهلي والإسلامي، في أبهى صوره، وأنقى ألفاظه ومعانيه"(١).

وقد ظهر لي من قراءة هاتين المفضلتين المختارتين وجود مستوى كبير من التداخل الفني والأسلوبي في أساليب الرثاء فيهما، الأمر الذي يعكس وجود تشابه عام في منهج هذين الشاعرين المخضرمين. وهو التشابه الذي نحاول إبرازه في هذا البحث التحليلي من خلال توقفنا عند العناوين الآتية :

١. التعريف بكتاب المفضليات ومؤلفه.

٢. التعريف بأبي ذؤيب وبمفضليته العينية الرثائية:

٣. التعريف بمتمم بن نويرة وبمفضليته العينية الرثائية:

٤. وقفة مع عينية أبي ذؤيب.

٥. وقفة مع عينية متمم بن نويرة.

٦. نظرة مقارنة في العينيتين المدروستين.

١- تسلسل الموضوعات وبناء المعاني.

٢- أسلوب التكرار.

- ملاحظات ختامية

- المصادر والمراجع.

(١) شرح جمهرة أشعار العرب: المقدمة: ص٣-٥.

١- التعريف بكتاب المفضليات ومؤلفه:

يعد كتاب المفضليات من أقدم كتب الاختيارات الشعرية، وأكثرها صحة، ووثوقية. أما مؤلفه فهو المفضل الضبي (ت١٧٠هـ)، وقد كان عباسي الهوى، وقد قربه الخليفة العباسي المنصور، وألزمه ابنه المهدي يؤدبه؛ وللمهدي صنع المفضليات.. ورغم ذلك كان المفضل -على ما يروون من أنه كان ثقة، كثير الرواية للشعر- لا يحسن شيئًا من الغريب، ولا من المعاني، ولا تفسير الشعر، وإنما كان يروي شعرًا مجردًا(١).

واسمه: المفضل بن محمد بن أبي يعلى الضبي، كنيته: أبو العباس، هذا الرجل ولد بالكوفة. أما تاريخ مولده بالتحديد فقد اختلف فيه، وكان المفضل لغويًا راوية للأخبار والآداب، وأيام العرب، وهو موثوق الرواية، ويعد من القراء المجيدين، كما يعد من المحدِّثين الذين يتصفون بالتقوى وحسن الخلق(٢).

وقد شهد للمفضل الضبي الخليفة المهدي بغزارة علمه، وصحة روايته، والثقة فيها، فقال: "يا معشر من حضر من أهل العلم؛ إن أمير المؤمنين ليعلمكم أنه قد وصل حماد الشاعر بعشرين ألف درهم؛ لجودة شعره -وصل حماد يعني أعطاه عطية أو هدية- وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها، ووصل المفضل الضبي بخمسين ألفًا لصدقه وصحة روايته، فمن أراد أن يسمع شعرًا جيدا مُحْدثًا فليسمعه من حماد، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل"(٣).

وقد عُدَّ المفضل الضبي من جيل العلماء الأُول، وكان راوية عالمًا بأخبار العرب وأيامها وأشعارها ولغاتها، وقد كان مؤدبًا للمهدي، ولي عهد المنصور، وكان المفضل قد اختَارَ عَدَدًا من القصائد تعد من أجود أشعار العرب، أقرها الأصمعي وزاد عليها، وتتضمن المفضليات مائة وثلاثين قصيدة، وفقًا لتحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، تزيد أحيانًا، وتنقص أحيانًا أخرى، في بعض الطبعات.

---

(١) الأسد (ناصر الدين): مصادر الشعر الجاهلي ، ط٧/ ١٩٨٨م، دار المعارف بمصر، ص٤٤٥.

(٢) مجموعة مؤلفين: أصول البحث الأدبي ومصادره، منشورات جامعة المدينة العالمية، ص٤٣-٤٤.

(٣) ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ) : معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: تحقيق: إحسان عباس، (ط١/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ج٥/ ص ٥١٦).

والراجح أن المفضل الضبي توفي عام مائة وثمان وسبعين للهجرة، وقيل: سنة خمس وسبعين بعد المائة، وله مجموعة من الكتب منها: كتاب (الأمثال)، وكتاب (معاني الشعر)، وكتاب (الألفاظ)، وكتاب (العروض)، وأشهر كتبه (المفضليات)[١].

أما قصائد المفضليات فهي –في غالبيتها– لشعراء جاهليين، وأقلها لشعراء مخضرمين، وإسلاميين، وأطول قصائدها قصيدة سويد بن أبي كاهل، وعدتها مائة وثمانية أبيات، وقد قام كثير من الشراح بشرح هذه القصائد لأهميتها[٢].

أما عن سبب تأليف المفضليات، فيذكر ابن النديم في كتابه (الفهرست) أن المفضل الضبي خرج مع إبراهيم بن عبد الله بن الحسن القرشي الهاشمي، على الخليفة المنصور، يعني ثار عليه ضمن الثائرين، وكان ذلك بالبصرة في سنة ١٤٥هـ، ثم ظفر المنصور بالمفضل الضبي، وعفا عنه، وقتل إبراهيم بن عبد الله، ثم عهد إلى المفضل الضبي تأديب ولده المهدي، أي تعليمه، وكان هناك مجموعة من الأدباء يقومون بتأديب أولاد الخلفاء والأمراء والوزراء، وروايتهم الأشعار القديمة؛ حتى تستقيم ملكتهم، فاختار المفضل الضبي هذه الأشعار ليعلمها المهدي، وانتقاها لتثقيفه[٣].

أما عن شروح (المفضليات) فقد حظيت بالكثير من الشروح، ولا شك في أن صحة رواية المفضل الضبي، وثقة العلماء في ذوقه وعلمه وأمانته، ثم مكانته التي تبوأها بينهم؛ لا شك في أن ذلك كله وغيره –مما يتصف به الرجل من صفات حسنة– جعل الشراح يقبلون على مختاراته شرحًا وتأملا وتذوقًا، فقد شرحها أبو محمد القاسم بن الأنباري، كما شرحها أبو جعفر أحمد بن محمد النحوي المصري، المعروف بابن النحاس، وشرحها أيضًا أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي، وأبو زكريا التبريزي، وأبو الفضل الميداني، وطبعت هذه الشروح أكثر من مرة، واشترك في تصحيحها والتعليق عليها عدد من العلماء[٤].

(١) ابن النديم: الفهرست: ص ٩٤.

(٢) الشنطي: (محمد صالح): فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه، (ط٥/: دار الأندلس للنشر والتوزيع – السعودية / حائل، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م، ص ٣٦).

(٣) ابن النديم: الفهرست: ص ٩٤.

(٤) مجموعة مؤلفين: أصول البحث الأدبي ومصادره، ص٤٥.

٢- التعريف بأبي ذؤيب وبمفضليته العينية الرثائية:

ونعني عينيته الرثائية المشهورة في رثاء أبنائه ومطلعها هو :

أَمِنَ المَنُونِ ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ والدَّهْرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

وبلغ عدد أبياتها ٦٥ بيتا، بحسب ما ورد في كتاب المفضليات[١]، للمفضل الضبي، المتوفى نحو ١٦٨هـ، بينما بلغ عدد أبياتها ٦٧ بيتا، في جمهرة أشعار العرب[٢]، لأبي زيد القرشي، المتوفى: ١٧٠هـ. أما البغدادي فقد صرح في كتابه (خزانة الأدب) أن عُدة رثائية أبي ذؤيب لأبنائه اثنان وَسِتُّونَ بَيْتًا[٣].

وقد أشاد علماء الأدب بهذه الرثائية الملحمية وبقائلها، كما اشتهرت العديد من أبيات هذه القصيدة في الشواهد اللغوية والنحوية والصرفية؛ فعدت أبياتا سائرة. فعن الأصمعيّ قال: أبرع بيت قالته العرب قول أبي ذؤيب:

والنفس راغبة إذا رغّبتها وإذا تُرِدّ إلى قليل تقنع[٤]

ومن أبياتها السائرة أيضا في شواهد اللغة قول أبي ذؤيب في البيت الخامس من عينيته:

أودى بنيّ وأعقبوني حسرة عند الرّقاد وعبرة لا تقلع

والشاهد فيه «بنيّ»، حيث قلب فيه واو الجمع ياء، ثم أدغمت الياء في الياء؛ إذ أصله «بنوي» بإسقاط النون للإضافة[٥].

ومن فنون البيان الاستعارة بالكناية: وهى أن لا يصرّح بذكر المستعار بل بذكر بعض لوازمه تنبيها به عليه، كقولهم: شجاع يفترس أقرانه، وعالم يغترف منه الناس، وكقول أبي ذؤيب:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ألفيت كلّ تميمة لا تنفع

---

(١) المفضل الضبي: المفضليات، "ط/ دار المعارف" ، ص: ٤٢١- ٤٢٩.

(٢) أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب: تحقيق: علي محمد البجادي، ط/ نهضة مصر، ص: ٥٣٤- ٥٥١.

(٣) البغدادي: خزانة الأدب: ج١/ ص: ٤٢٠.

(٤) ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) : عيون الأخبار: (ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤١٨هـ، ص٢٠٨).

(٥) شُرَّاب: محمد بن محمد حسن شراب: شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية «لأربعة آلاف شاهد شعري»، (ط١/ مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٧م، ج٢/ ص ٩٩).

تنبيها على أنّ الشجاع أسد، والمنيّة سبُع، والعالِم بحر، وهذا وإن كان يشبه الاستعارة المجرّدة، إلّا أنّه أغرب وأعجب[١]. والشَّاهِد فِي البيت السابق الِاسْتِعَارَة بِالْكِنَايَةِ، والاستعارة التخييلية، فَهُوَ هُنَا شبه فِي نَفسه الْمنية بالسبع فِي اغتياله النُّفُوس بالقهر وَالْغَلَبَة، من غير تَفْرِقَة بَين نفّاع، وَضِرَار، وَلَا رقة لمرحوم؛ فَأثْبت لَهَا الْأَظْفَار الَّتِي لَا يكمل الاغتيال فِي السَّبع بِدُونِهَا تَحْقِيقا للْمُبَالَغَة فِي التَّشْبِيه، فتشبيه الْمنية بالسبع اسْتِعَارَة بِالْكِنَايَةِ، وَإِثْبَات الْأَظْفَار لَهَا اسْتِعَارَة تخييلية[٢].

وفي كتاب "فحولة الشعراء" للأصمعي: حدثنا أبو حاتم قال: حدثنا الأصمعي قال: قيل لحسان: من أشعر الناس؟ قال: أشعرهم رجلا أم قبيلة؟ قيل بل قبيلة، قال: هذيل، قال الأصمعي: فيهم أربعون شاعرا مفلقا، وكلهم يعدو على رجله، ليس فيهم فارس[٣].

أما أبو ذؤيب فاسمه خويلد بن خالد بن محرّث: من بني هذيل بن مدركة، من مضر: شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وسكن المدينة، واشترك في الغزو والفتوح، وعاش إلى أيام عثمان فخرج في جند عبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى إفريقية سنة ٢٦ هـ غازيا، فشهد فتح إفريقية، وعاد مع عبد الله بن الزبير وجماعة يحملون بشرى الفتح إلى عثمان (رض) فلما كانوا بمصر مات أبو ذؤيب فيها، وقيل مات بإفريقية. أشهر شعره عينية رثى بها خمسة أبناء له أصيبوا بالطاعون في عام واحد، مطلعها:

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع[٤]

قال البغدادي: هو أشعر هذيل من غير مدافعة. وفد على النبي صلّى الله عليه وسلم ليلة وفاته، فأدركه وهو مسجّى وشهد دفنه[٥].

---

(١) النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب: (ط١/ دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ج٧/ ص٥٥).

(٢) أبو الفتح العباسي: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: ج٢/ ص١٦٧).

(٣) الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (المتوفى: ٢١٦هـ): فحولة الشعراء: تحقيق: المستشرق: ش. تورّي، قدم لها: الدكتور صلاح الدين المنجد، (ط٢/ دار الكتاب الجديد، بيروت – لبنان، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م، ص ١٩).

(٤) الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الأعلام: (ط١٥/ دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م، ج٢/ ص ٣٢٥).

(٥) البغدادي: خزانة الأدب: ج١/ ص ٤٢٣.

وكان يقال: هذيل أشعر القبائل، وأبو ذؤيب أشعرها، وأمير شعره قصيدته العينية التي يرثي بها أبناءه(١).

٣- التعريف بمتمم بن نويرة وبمفضليته العينية الرثائية:

ونعني عينيته الرثائية التي مطلعها :

لَعَمْري وما دهري بتأبِينِ مَالكٍ وَلاَ جَزِعاً مِمّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا

وهي الرثائية الخالدة، التي تسمّى في بعض كتب الأدب القديم بـ"أمّ المراثي"(٢). وقد جاءت في ٥١ بيتا، بحسب ما ورد في كتاب المفضليات، للمفضل الضبي(٣)، بينما بلغ عدد أبياتها ٤٤ بيتا في جمهرة أشعار العرب(٤)، لأبي زيد القرشي.

أما قائل هذه القصيدة فهو الشاعر الفحل المخضرم: متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي، أبو نهشل: شاعر فحل، مخضرم، صحابي، من أشراف قومه، اشتهر في الجاهلية والإسلام. وكان قصيرا، أعور، أشهر شعره رثاؤه لأخيه "مالك"، ومنه قوله:

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل: لن يتصدعا

وسكن متمم المدينة، في أيام عمر، وتزوج بها امرأة، لم ترض أخلاقه؛ لشدة حزنه على أخيه(٥).

وقد أشاد النقاد القدماء بشعر متمم ورثائياته خاصة، فجعله ابن سلام الجمحي رأس طبقة شعراء المراثي، مقدما له على الخنساء وأعشى باهلة، مثنيا على مراثيه، قائلا: (والمقدم عندنا متمم بن نويرة، ويكنى أبا نهشل، رثى أخاه مالك بن نويرة، وكان قتله خالد بن الوليد بن المغيرة، حين وجهه أبو بكر رضي الله عنه إلى أهل الردة.. وبكى متمم مالكا، فأكثر وأجاد، والمقدمة منهن قوله:

لعمري وما دهري بتأبين هالك ولا جزعا مما أصاب وأوجعا(٦)

ويروي ابن قتيبة في "عيون الأخبار"، أن متمّم بن نويرة دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له عمر: أرى في أصحابك مثلك! قال: يا أمير المؤمنين، أما والله إنّي مع ذلك لأركب الجمل النّفال، وأعتقل الرّمح الشّطون، وألبس الشّملة الفَلوت. ولقد أسرني بنو

(١) الثعالبي: لباب الآداب: ج١/ ص ١٣٧.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ، ج٣/ ص ٢٢٠.
(٣) المفضليات ، ص: ٢٦٥-٢٧٠.
(٤) جمهرة أشعار العرب: ج١/ ص: ٥٩٤-٦٠١.
(٥) الزركلي: الأعلام : (ج٥/ ص ٢٧٤).
(٦) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء : (ص٢٠٤ و ٢٠٩).

تغلب في الجاهليّة، فبلغ ذلك مالكا فجاء ليفتديني، فلما رآه القوم أعجبهم جماله، وحدّثهم فأعجبهم حديثه، فأطلقوني له بغير فداء(١).

وفي "الشعر والشعراء" أنه لمّا استشهد زيد بن الخطّاب يوم مسيلمة، ودخل متمّم على عمر بن الخطّاب، قال له عمر: أنشدني بعض ما قلت في أخيك، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

وكنّا كندماني جذيمة حقبة من الدّهر حتّى قيل لن يتصدّعا

فلمّـا تفرّقنـا كأنّي ومالكا لطـول اجتماع لم نبت ليلة معا

فقال له عمر: يا متمّم، لو كنت أقول الشعر لسرّني أن أقول في زيد بن الخطاب مثل ما قلت في أخيك، قال متمّم: يا أمير المؤمنين، لو قُتل أخي قتلة أخيك ما قلت فيه شعرا أبدا، فقال عمر: يا متمم، ما عزّاني أحد في أخي بأحسن ممّا عزّيتني به(٢).

وقد أثنى ابن الأثير على مُتمّم، وشاعريته المشهودة، وتقدمه في الرثاء، فقال: (وأما متمم فلم يُختلف فِي إسلامه. كَانَ شاعرا محسنا، لَمْ يقل أحد مثل شعره فِي المراثي التي رثى بِهَا أخاه مالكا) (٣).

٤- وقفة مع عينية أبي ذؤيب:

تضمنت هذه القصيدة الرثائية الباكية قصصا شعرية حزينة، لخص فيها أبو ذؤيب عبثية بحث الأحياء عن السلامة من الموت والنجاة منها، متبعا طريقة سردية، تقوم على الوصف والتفصيل للقصة التي يعرضها. وسنعرض مقاطع القصيدة مفصلة على النحو الآتي:

✓ **المقطع الأول: ١-٩ :**

أَمِنَ المَنُـونِ ورَيْبِهـا تَتَوَجَّعُ والدَّهْرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

قالتْ أُمَيْمَةُ ما لِجِسْمِكَ شاحِباً مُنْذُ ابْتُذِلْتَ ومثلُ مالِكَ يَنْفَـعُ

أَم ما لِجَنْبِكَ لا يُلائِمُ مضْجَعـاً إلاَّ أَقَضَّ عَليكَ ذَاكَ المضْجَـعُ

فأَجَبْتُهـا أَمَّا لِجِسْمِـي أَنَّـهُ أَوْدَى بَنِـيَّ منَ البلادِ فَوَدَّعُـوا

أَوْدَى بَنِيَّ وأَعْقَبونِي غُصَّـةً بَعْدَ الرُّقَـادِ وعَبْـرَةً لا تُقْلِعُ

سَبَقوا هَوَيَّ وأَعْنقُوا لِهَواهُـمُ فَتُخُرِّموا ولُكـلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

---

(١) عيون الأخبار: ج٤/ ص٣٢. الجمل الثفال: بفتح الثاء المثلثة: البطيء الثقيل الذي لا ينبعث إلا كرها. الشملة الفلوت: بفتح الفاء: التي لا ينضم طرفاها لصغرها، فهي تفلت من يده إذا اشتمل بها. أو هي الثوب الواسع الذي يصعب جمع طرفيه باليدين. الثفال. الرمح الشطون، بفتح الشين المعجمة: الطويل الأعوج.

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: ص ٣٢٦. وقد أراد متمم القول إن زيد بن الخطاب قتل يوم اليمامة شهيدا، وإن مالك بن نويرة قتل على الردة، فهو أشد أسى عليه.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة: ج٥/ ص ٥٤.

فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمُ بِعَيشٍ ناصِـــبٍ وأَخالُ أَنِّي لاَحِـقٌ مُسْتَتْبَعُ
ولقد حَرَصْتُ بأَنْ أُدافِعُ عنهمُ وإذا المَنيَّةُ أَقْبَلَتْ لا تُدْفَعُ
وإذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظفارَهـــا أَلْفَيْتَ كلَّ تَمِيمـــةٍ لا تَنْفَعُ

وقد افتتح أبو ذؤيب هذه المرثية –المعدودة في عيون شعر الرثاء القديم– بأسلوب الاستفهام الإنكاري عن التوجع على المنون، متعجبا ممن يجزع من (ريب المنون)، رغم أن الدهر لا يحابي أحدا، ولا يعبأ به، أحرى أن يعتبه، متخلصا بعد ذلك إلى محاورة زوجه (أميمة) التي تعجبت من تغيّر حال زوجها وتبذّله، رغم غناه، الذي افترضت أنه يوفر له الراحة البدنية والنفسية، لكن أبا ذؤيب يجيبها بحزم: إن سر سوء حاله هو حزنه على أبنائه الذين أودى بهم ريب الزمان؛ فأعقبوه (غصة) بعد الرقاد، و(عَبرة) لا تقلع عن الانهمار طول الوقت.

ويستطرد أبو ذؤيب في وصف معاناته المزدوجة العميقة من الرحيل المفجع المفاجئ لأبنائه، مصورا مظاهرها المادية والنفسية، قائلا إنهم أخلفوه (عيشا ناصبا) منغصا، لا راحة فيه ولا سعادة ولا طمأنينة، لكن الذي يخفف معاناته هو شعوره بأنه لاحق بهم لا محالة، مؤكدا حرصه الفطري على الدفاع عنهم بكل ما أوتي من قوة، لكن المنية قدَر لا دافع له حين يأتي، ولا راد لهجمته حين يغدر.

- ✓ **المقطع الثاني (١٠-١٦) :**

فالعَيْنُ بعـدَهُمُ كـــأن حداقهـــا سُملت بِشَوْكٍ فَهْيَ عُورٌ تَدْمَعُ
حتـى كأَنِّـــي للحَـــوادِثِ مَـــرْوَةٌ بِصَفا المُشَرَّقِ كُلَّ يوم تُقْـــرَعُ
وتَجَلُّـــــدِي لِلشَّامِتِيـــنَ أُرِيهِـــمُ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَـعُ
والنَّفْسُ راغِبَـــــةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَـــا وإِذَا تُـــرَدُّ إِلـــى قَلِيـــلٍ تَقْنَـــعُ
ولَئِنْ بِهِمْ فَجَـــعَ الزَّمـــانُ ورَيْبُهُ إِنِّـــي بِأَهْـــلِ مَوَدَّتِـــي لَمُفْجَّـــعُ
كَمْ مِنْ جَمِيعِ الشمْلِ مُلْتَئِمِ القُوَى كانوا بعَيْـــشٍ قَبْلَنَـــا فَتَصدَّعُوا
والدَّهْرُ لا يبقى علـــــى حدثانـــه جَـــوْنُ السَّرَاةِ لهُ جَدَائِـدُ أَرْبَعُ

وقد استعرض الشاعر في هذا المقطع الباكي المظاهر المادية لحزنه العميق: (عيناه الدامعتان) حتى كأنهما (سُملتا بشوك)، فهما طول الدهر (عُورٌ تدمع)، متعجبا من تجلّده للحوادث، وصبره الشديد عليها، رغم ترصدها له، حتى غدا كأنه (مروة) تُقرع بها السهام كل يوم.

وبالرغم من عظم مصيبة الشاعر بأبنائه، وعمق أسفه عليهم، إلا أنه لا يظهر للشامتين به غير التجلّد والتّصبّر أمام (ريب الدهر) الظلوم الغشوم؛ متخلصا إلى الحكمة، قائلا إن النفس البشرية طبعها المرونة والتعوّد، حتى لترضى وتقنع بالأمر المحزن لها إن

تعوّدت عليه. ولئن كان الدهر قد فجع أبا ذؤيب بأبنائه، فإن تلك شيمة من شيمه المعروفة، فهو دوما يغدر بأبناء الزمان ما تعاقب الجديدان، ولا نجاة لحي يبليه كرهما كل حين، ويدنيه من حتفه، حتى لو كان غافلا متكلا على قوته وصحته.

فـ(على) في البيت الأخير بِمَعْنى (مَعَ) والحدثان بِمَعْنى الْحَادِثَة والسراة بِفَتْح السِّين أَعلَى الظّهْر. وسراة كل شَيْء أَعْلَاهُ. والجون: بِفَتْح الْجِيم: الْأسود، المائل إِلَى الْحمرَة. وَأَرَادَ بجون السراة الْحمار الوحشي. والجدائد: الأتن الَّتِي لَا ألبان لَهَا، وَاحِدهَا جَدود بِفَتْح الْجِيم.

لقد بدأ أبو ذؤيب في البيت الأخير (١٦) من رثائيته يُسلّي نَفسه، وَيَقُول إِن أصبت ببَنِيَّ فتكدر بموتهم عيشي، فَإِن الدَّهْر لَا يسلم على نوائبه عير أسود الظّهْر، لَهُ أتن أَربع، قد خفت أَلْبَانهَا. وَالْمعْنَى أَن الْوَحْش فِي تباعدها عَن كثير من الآفَات الَّتِي يقاربها الْإِنْس، وَفِي انصرافها بطبعها وحدسها عَن جلّ مراصد الدَّهْر، وعَلى نفارها الشَّديد، وحذارها الكثير، وبُعد مراتعها من الصياد، لَيست تتخلص بجهدها من حوادث الدَّهْر، بل لابد من هلاكها[1].

✓ **المقطع الثالث (١٧-٣٦) :**

صَخِبُ الشوارب لا يزال كأَنَّهُ عَبْدٌ لآلِ أَبي رَبيعَةَ مُسْبَعُ
أَكَلَ الجَمِيمَ وطاوَعَتْهُ سَمْحَجٌ مِثْلُ القَناةِ وأَزْعَلَتْه الأَمْرُعُ
بِقَرَارِ قِيعانٍ سَقاها وَابِـــلٌ وَاهٍ فَأَثْجَمَ بُرْهَةً لا يُقْلِعُ
فَلَبِثْنَ حِيناً يَعْتَلِجْنَ بِرَوْضِـهِ فَيُجِدُّ حِيناً في العِلاَجِ ويَشْمَعُ
حتَّى إِذَا جَزَرَتْ مِياهُ رُزُونِهِ وبأَيِّ حِينِ مَلاوَةٍ تَتَقَطَّعُ
ذكَرَ الْوُرُودَ بها وشَاقَى أَمْرَهُ شُؤْمٌ وأَقْبَلَ حَيْنُهُ يَتَتَبَّعُ
فَافْتَنَّهُنَّ مِنَ السوَاءِ ومـــاؤُهُ بَثْرٌ وعانَدَهُ طرِيقٌ مَهْيَعُ
فكأَنَّها بالجِزْعِ بَيْنَ نُبايـــعٍ وأُولاَتِ ذِي العَرْجاءِ نَهْبٌ مُجْمَعُ
وكأَنَّهُنَّ رِبابـــةٌ وكأَنَّـــهُ يَسَرٌ يُفِيضُ على القِدَاحِ ويَصْدَعُ
وكأَنَّما هُو مِدْوَسٌ مُتقَلِّـــبٌ في الكَفِّ إِلاَّ أَنَّهُ هُوَ أَضْلَعُ)
فَوَرَدْنَ والعَيُّوقُ مَقْعَدَ رابئ الض ضرباء فَوقَ النَّظْمِ لا يَتَتَلَّعُ
فَشَرَعْنَ في حَجَرَات عَذْبٍ بارِدٍ حَصِبِ البِطاحِ تَغِيبُ فيه الأَكرُعُ
فَشَرِبْنَ ثمَّ سَمِعْنَ حِسًّا دُونَهُ شَرَفُ الحِجابِ ورَيْبَ قَرْعٍ يُقْرَعُ
ونَمِيمَةً مِنْ قانِصٍ مُتلَبِّـبٍ في كَفِّهِ جَشْءٌ أَجَشُّ وأَقْطَعُ
فنكرنه ونَفَرْنَ وامْتَرَسَتْ بهِ سَطعَاءُ هَادِيةٌ وهادٍ جُرْشَعُ
فَرَمَى فأَنْفَذ مِنْ نَجُودٍ عائطٍ سَهْماً فَخَرَّ وريشُهُ مُتَصَمِّعُ
فَبَدَا لَهُ أَقْرَابُ هَذَا رَائغـــاً عَجِلاً فَعَيَّثَ في الكِنانة يُرْجِعُ

(١) البغدادي: خزانة الأدب: ج١/ ص ٤٢١.

فَرَمَى فأَلْحَقَ صاعِدِيًّا مِطْحَراً بالكَشْحِ فاشْتَمَلَتْ عليهِ الأَضْلُعُ
فأَبَدَّهُنْ حُتُوفَهُنَّ فَهـــارِبٌ بِذَمائِهِ أَو بارِكٌ مُتَجَعْجَعُ
يَعْثُرْنَ في حَدِّ الظُّباتِ كأَنَّما كُسِيَتْ بُرُودُ بَنِي تَزِيدَ الأَذْرُعُ

وهو المقطع الذي خصصه أبو ذؤيب لوصف معركة الحمار الوحشي مع كلاب الصيد المدربة ومالكها، وكيف يخوض الحمار معهما معركة حاسمة غير متكافئة، لذلك بدت أحداثها مثيرة ومتلاحقة، فاستخدم الشاعر في العطف حرف الفاء ليفيدنا تقارب الأحداث وتلاحقها. (فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف اضطرد له، ولم ينحل عقده، ولا اختل بناؤه، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته إياه، لما تمكّن له هذا التمكّن)[١].

فرغم تحصّن الحمار الوحشي وقطيعه من سهام الصيادين وكلابهم التي تترصّدهم كل حين، إلا أنهم بقوا في منعة بعيدة في سفح الجبل، حيث أبعد نقطة وأخفاها وأمنعها، وهم مع ذلك لا يردون الماء إلا آخر الليل خوفا من شباك الموت، لكن كل ذلك لن يجدي نفعا حين تزف ساعة الموت؛ فعند ذلك لا يجدي الفرار ولا الحذر أو الهروب؛ لأن الموت غاية كل حي، ولا مهرب منه لأي بشر أو حيوان، قويا كان أو ضعيفا.

وهكذا، يصف أبو ذؤيب معركة حُمُر الوحش مع الصياد وكلابه المدربة، ليجعل منها معركة وجودية تعكس حرص الحيوان على الحياة، واستعداده الفطري للدفاع عن نفسه، ولو كان ضعيفا، لا يمتلك عدة ولا عتادا لمواجهة أعداء مدججين بالسلاح؛ لكن هذا الحيوان يبقى مدافعا عن حياة قد لا يكتب لها الطول إن تعددت المخاطر وتحالف الأعداء؛ وهذا حال بني الإنسان في هذه الحياة؛ فهم متشبثون بها، رغم ثقتهم الثابتة أنها لن تدوم، وأنهم حتما راحلون عنها، طال الزمان أم قصر.

- ✓ **المقطع الرابع (٣٧-٥٠) :**

والدَّهْرُ لا يبقى على حَدَثانِـــهِ شَبَبٌ أَفَزَّتْهُ الكِلابُ مُرَوَّعُ
شَعَفَ الكلابُ الضَّارِياتُ فُؤَادَهُ فإِذَا رأَى الصُّبْحَ المُصَدَّقَ يَفْزَعُ
ويُعوذُ بالأَرْطَى إِذَا ما شَفَّـــهُ قَطْرٌ ورَاحَتْهُ بَلِيلٌ زَعْزَعُ
يَرْمِي بِعَيْنَيْهِ الغُيُوبَ وطَرْفُـــهُ مُغْضٍ يُصَدقُ طَرْفُهُ ما يَسْمَعُ
فَغَدَا يَشرِّق مَتْنَهُ فَبدَا لـــــهُ أُولَى سَوَابِقِها قَرِيباً تُوزَعُ
فاهْتاجَ منْ فَزَعٍ وسَدَّ فُرُوجَهُ غُبْرٌ ضَوَارٍ وَافيانِ وأَجْدَعُ
يَنْهَشْنَهُ ويذُبُّهُـــنَ ويَحْتَمِـي عَبْلُ الشَّوَى بالطُّرَّتيْنِ مُوَلَّعُ
فَنَحا لها بِمُذَلَّقَيْـــنِ كأَنَّمـــا بِهِما من النضخ المجذح أَيْدعُ

(١) ابن رشيق: العمدة: ج١/ ص ١٣٠.

فكأنَّ سَفُّودَيْـن لمَّـا يُقْتِـــرَا عجِلاَ لهُ بِشِوَاءِ شَرْبٍ يُنْزَعُ
فصَرَعْتَهُ تحتَ الغُبارِ وجَنْبُـــهُ مُتَتَرِّبٌ ولكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ
حتَّى إذا ارتَدَّتْ وأَقْصَدَ عُصْبَةً منها وقامَ شريدُها يَتَضَوَّعُ
فَبدَا لهُ رَبُّ الكِـــلاَبِ بِكَفِّـــهِ بِيضٌ رِهابٌ ريشُهُنَّ مُقَزَّعُ
فَرَمَى لِيُنْقِذَ فَرَّها فَهَـــوَى لهُ سَهْمٌ فأَنْفَذَ طُرَّتَيْهِ المِنْزَعُ
فَكبَا كما يَكْبُـــو فَنيـــقٌ تارز بالخبت إلاَّ أَنَّهُ هُوَ أَبْرَعُ

وهذا المقطع خصصه أبو ذؤيب أيضا لوصف معركة الثور الوحشي المسن مع الكلاب التي أطلقها صاحبها للصيد. (فالشّبب والشّبوب والمشبّ: المسنّ من الثيران، قَالَ: والافزار عندي: الاستخفاف، وأفزّته: استخفّته، ومنه قيل لولد البقرة: فزّ، لأنه يستخفّه كلّ شيء رآه، أو أحسّ به)[1].

لقد التفت الثور فجأة، فرأى كلاب الصيد حوله، فركض هارباً من الموت، وركضت الكلاب خلفه، والتقى الخصمان، وحاول الثور أن يدافع عن نفسه، وكانت وسيلة الدفاع عند قرنيه الحادين اللذين نفذا إلى جنبي الكلب، وكاد الثور ينتصر لولا التدخل المفاجئ للصائد الذي رماه بسهمه فأرداه قتيلاً[2].

✓ **المقطع الخامس (٥١-٦٥) :**

والدَّهْرُ لا يبقى علـى حدثانـــه مُسْتَشْعِرٌ حَلَقَ الحديدِ مُقَنَّعُ
حَمِيَتْ عليه الدِّرْعُ حتَّى وَجْهُـهُ منْ حَرِّها يومَ الكريهَةِ أَسْفَعُ
تَعدُو بهِ خَوْصاءُ يَفْصِمُ جَرْيُهـا حَلَقَ الرِّحَالَةِ فَهْيَ رِخْوٌ تَمْزَعُ
قَصَرَ الصَّبُوحَ لها فَشُرِّجَ لَحْمُها بالنَّيِّ فَهْيَ تَثُوخُ فيها الإِصْبَعُ
مُتفَلِّقٌ أَنْسَاؤُهـــا عـــنْ قانئ كالقُرْطِ صَاوٍ غُبْرُهُ لا يرضع
تَأْبَى بِدِرَّتِها إذا ما استُغْضِبَـتْ إلاَّ الحَمِيمَ فإنَّهُ يَتَبَضَّعُ
بَيْنَا تَعَنُّقِهِ الكُمـــاةَ وروغـــه يوما أتيحله لهُ جَرِيءٌ سَلْفَعُ
يَعْدُو بهِ نَهْشُ المُشَـــاشِ كأَنَّهُ صَدَعٌ سَلِيمٌ رَجْعُهُ لاَ يظلع
فتناديا وتواقفـــــت خَيْلاَهُمـــا وكِلاَهُما بَطَلُ اللِّقاءِ مُخَدَّعُ
متَحامِيَيْنِ المَجْدَ كـــلُّ وَاثِـــقٌ بِبلائِهِ والْيَوْمُ يَوْمٌ أَشْنَعُ
وعليهما مَسْرُودَتانِ قَضَـــاهُما دَاوُودُ أَو صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

(١) أبو علي القالي: الأمالي: ج٢/ ص٣٢٠.

(٢) نورة الشملان: أبو ذؤيب حياته وشعره: ص ٦٥ ط١، نقلا عن: الخاني (أحمد): القصة الشعرية لدى أبي ذؤيب الهذلي، مقال منشور في الانترنت على الرابط الآتي :
https://www.alukah.net/sharia/0/87124/#ixzz752V1dGgD

وكِلاَهُما في كَفِّـهِ يَزَنِيَّـــةٌ فيها سِنانٌ كالمنارَةِ أَصْلَعُ
وكِلاَهُما مُتَوَشِّحٌ ذَا رَوْنَقٍ عَضْباً إِذَا مَسَّ الضَّرِيبَةَ يَقْطَعُ
فتخالساَ نْفسَيْهِما بِنَوَافــِذٍ كَنَوَافِذِ العُبُطِ الَّتي لاَ تُرْقَعُ
وكِلاهُما قد عاشَ عِيشَةَ ماجِدٍ وجَنَى العَلاَءَ لَوَ أن شيئا ينقع

وهو المقطع الأخير من هذه العينية الرثائية، ويتكون من ١٤ بيتا، خصصها أبو ذؤيب لوصف معركة ضارية، دارت رحاها بين فارسين بطلين، تبارزا للقتال، كانا متأهبين للنصر، فهما متحصنان بدرعين سابغتين، وكلاهما يحمل في كفه رمحا يزنية، فيها سنان حادة، وهو متوشح سيفا صقيلا عضبا، يقطع بضربة واحدة.

ورغم توفر أسباب القوة للفارسين المقاتلين، وتحصنهما وحذرهما، وكيف أن كلا منهما واثق من قدرته على الانتصار على عدوه، لكن تخالف ضربتيهما القاضيتين فتكت بحياتهما، فقتل كل منهما الآخر؛ إذ كان للموت معهما موعد لم يخلفه؛ فهو غاية كل حي، وحصاده لا يستثني حيا مهما كان، قويا أو ضعيفا، شجاعا أو جبانا.

وعموما، يمكننا عنونة أهم القصص الشعرية في هذه العينية الرثائية على النحو الآتي:

- ✓ **القصة الأولى: صراع حمار الوحش مع الصائد:**

وقد بدأها بقوله:

والدهر لا يبقي على حدثانه جون السراة له جدائد أربعُ

قص علينا الشاعر قصة حمار الوحش الذي ذهب مع أتنه الأربع إلى مكان خصب كثير العشب والماء.. سمع السرب صوتاً؛ إنه صوت الصائد الذي كان للسرب بالمرصاد، ودارت معركة بين الطرفين.. ولكن سهم الصائد كان أسرع ولم تلبث الضربة القاضية أن نالته فخر مضرجاً بدمائه.

- ✓ القصة الثانية: صراع الثور الوحشي والكلاب التي تطارده:

وقد بدأها بقوله:

والدهر لا يبقي على حدثانه شببٌ أفزته الكلاب مروعُ

- ✓ القصة الثالثة: لقاء بطلين، قتل كل منهما صاحبه:

وقد بدأها بقوله:

والدَّهْرُ لا يبقى على حدثانه مُسْتَشْعِرٌ حَلَقَ الحديدِ مُقَنَّعُ[1]

---

(١) نورة الشملان: أبو ذؤيب حياته وشعره: ط١/ ص ٦٥، نقلا عن: الخاني (أحمد): القصة الشعرية لدى أبي ذؤيب الهذلي، مقال منشور في الانترنت على الرابط الآتي :
https://www.alukah.net/sharia/0/87124/#ixzz752V1dGgD

٥- وقفة مع عينية مُتمم بن نويرة:

تضمنت هذه القصيدة الرثائية الباكية ملامح شعرية حزينة، لخص فيها متمم بن نويرة مشاهد مختلفة من أساه على أخيه مالك، الذي قُتل في حروب الردة، مفصلا في ذكر مآثره العظيمة التي تميّز بها، فجعلت من المستحيل نسيانه له، أو سُلوّه عنه. وسنعرض مقاطع القصيدة مفصلة على النحو الآتي:

- ✓ **المقطع الأول: ١-٥ :**

لَعَمْرِي وما دَهْرِي بتأْبِينِ هَالِكٍ ولا جَزَعٍ مِمَّا أَصَابَ فأَوْجَعَا
لقد كَفَّنَ المِنْهَالُ تَحْتَ رِدَائــهِ فَتى غيرَ مِبْطَانِ العَشِيَّاتِ أَرْوَعَا
ولا بَرَماً تُهْدِي النِّسَـاءُ لعرسه إذا القَشْعُ مِنْ حَسِّ الشِّتَاءِ تَقَعْقَعَا
لَبِيبٌ أَعَانَ اللُّبَّ منـهُ سَمَاحَةٌ خَصِيبٌ إِذَا ما رَاكِبُ الجَدْبِ أَوْضَعا
تَرَاه كَصدْرِ السيف يهتز للندى إذا لم تَجِدْ عِندَ امرئ السَّوْءِ مَطْمَعَا

بدأ متمم هذه الرثائية العينية الباكية في أخيه مالك بن نويرة بالقسم بعُمره أنه ما انشغل دهرا بتأبين هالك، ولا أصابه في حياته جزع مثل ما حلّ به يوم قُتل أخوه مالك، فلم يصبه الدهر بمثل ذلك اليوم الذي فقد فيه سنده في الحياة أخاه مالكا، رغم ثقته أن الجزع عليه لن يفيده شيئا، ولن يرده عليه حيا يرزق.

وهكذا سارت الأبيات الخمسة الأولى من هذه القصيدة ممهدة لتعداد فضائل المرثيّ مالك، وعرضها تباعا وفق نبرة من الأسى والحزن كادت أن تعم ألفاظ القصيدة كلها. لقد كان مالك لقومه ردءا، وعليهم ظلا، فهو الكريم الشجاع، يطعمهم ماله، ويحميهم بقوته، وشجاعته، من كل عدو، أو خطر يتهددهم.

- ✓ **المقطع الثاني: ٦-١١ :**

ويوماً إِذَا ما كَظَّكَ الخَصْمُ إِنْ يَكُـنْ نَصِيرَكُ منهم لا تَكُنْ أَنتَ أَضْيَعا
وإِنْ تَلْقَهُ في الشَّرْبِ لا تَلق فاحِشاً على الكأْسِ ذَا قاذُورَةٍ مُتربِّعَا
وإِنْ ضَرَّسَ الغَزْوُ الرجـــال رأيته أخا الْحَرْبِ صَدْقاً في اللِّقاءِ سَمَيْدَعَا
وما كانَ وَقَّافاً إِذَا الخيــلُ أَحجمَتْ ولا طَائِشاً عِنْدَ اللِّقاءَ مُدَفَّعَا
ولا بِكَهَـــامٍ بَزُّهُ عـــن عَـــدُوِّهِ إِذَا هُوَ لاقَى حاسراً أَو مُقَنَّعَا
فَعَيْنَـــيَّ هـــلاَّ تَبْكِيـــانِ لِمَالِكٍ إِذَا أَذْرَتِ الرِّيحُ الكَنِيفَ المُرَفَّعَا

ففي المقطع الثاني من هذه القصيدة الرثائية تخلّص الشاعر إلى سرد مآثر أخيه بتفصيل أكثر، فهو كريم سمح، يهتز طربا للندى، ينصر الضعيف ومن يستنصر به، وهو مع ذلك ذو خُلق حسن، ليس بفاحش، صادق في القول والحرب، لا لئيم ولا جبان، الأمر الذي

يستحق البكاء بملء عينيه؛ إذ فقده فاجعة أحزنت الشاعر، وجعلته طول حياته يبكي حزنا على أخيه مالك.

✓ **المقطع الثالث: ١٢-١٦ :**

وللشَّرْبِ فَابْكِي مالِكاً ولِبُهْمَـةٍ شديدٍ نَوَاحِيهِ على من تشجعا
وضَيْفٍ إِذَا أَرْغَى طُرُوقاً بَعِيرَهُ وعَانٍ ثَوَى في القِدِّ حَتَّى تَكَنَّعا
وأَرْمَلَةٍ تَمْشِي بأَشْعَثَ مُحْثَـلٍ كفَرْخِ الحُبارَى رأسُهُ قد تَضَوَّعَا
إِذَا جَرَّدَ القَوْمُ القِداحَ وأُوقِـدَتْ لَهُمْ نارُ أَيْسَارٍ كَفَى مَنْ تَضَجَّعا
وإِنْ شَهِدَ الأَيْسَارَ لم يلف مالك على الفَرْثِ يَحْمِي اللَّحْمَ أَنْ يَتَمزَّعَا

ففي هذا المقطع يواصل الشاعر دعوة عينيه إلى البكاء على أخيه مالك فهو بهمة شجاع يكفي قومه كل خوف ويحميهم من كل مكروه، وحين يرغي الضيف بعيره وقت مجيئه الحي ليعلمهم بنفسه لا يجد من يسرع إليه لاستضافته وإكرامه غير مالك، وكما كان مالك ردءا للأسير، وملجأ للضيف، كان -كذلك- عونا للأرملة المسكينة التي ترعى صغارا هزلت أجسادهم وساءت حالهم بسبب الجوع ورداءة عيشهم.

وفضلا عن كل ذلك كان مالك ذا مروءة ونجدة، مقداما شجاعا، يسرع إلى المستغيث، وينقذ المتورّط؛ فهو متصف بكل خلال النخوة البدوية النبيلة، والشمائل العربية الحميدة.

✓ **المقطع الرابع: ١٧-٢٢ :**

أَبَى الصَّبْرَ آيـــاتٌ أَرَاهـا وأَنَّنِي أَرَى كُلَّ حَبْلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا
وأَنِّي متى ما أَدعُ باسْمِكَ لا تُجِبْ وكُنْتَ جدِيراً أَنْ تُجيبَ وَتُسْمِعَا
وعِشْنا بِخَيْـــرٍ في الحياةِ وقَبْلَنَا أَصَابَ المَنَايَا رَهطَ كِسْرَى وتُبَّعَا
وكُنَّـــا كَنَدْمَانَـــيْ جَذِيمةَ حِقْبَةً مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا
فلمَّـا تَفَرَّقْنَـا كأَنِّـــي ومَالِكاً لِطُولِ اجْتِماعٍ لم نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا
فإِنْ تَكُـــنْ الأَيَّـــامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا فقد بَانَ مَحْمُوداً أَخي حِينَ وَدَّعَا

وفي هذا المقطع يبدأ الشاعر التحسّر على أخيه مالك بنبرة أعمق مما قبلها، مستبعدا صبره فقد أخيه؛ إذ كيف يصبر وهذه آثار كرم فقيده ناطقة في استحالة سلوّه عنه، أو نسيانه له. فهو أصبح يدعو أخاه مالكا باسمه ولا مجيب له، رغم أن من أخلاق مالك المعروفة عنه: سرعة إجابة الداعي، ونجدة المستنجد، متخلصا من ذلك بالتسلي بالسابقين الهالكين، مثل كسرى وتُبّع، مشبها طول منادمته لأخيه مالك بندماني جذيمة بن الأبرش

(مالك وعقيل: من بلقين بن جسر بن قضاعة) وقد نادما جذيمة حين ردا عليه ابن أخته عمرو بن عدي[1].

وقد تفرّق اجتماع متمم بمالك كما تفرق ندمانا جذيمة عنه، حتى أصبح الكل قصصا ترويها الرواة، لتمثل بها على تغيّر حال الأيام وتبدلها، فهي لا تعرف السكون، لكن عزاء متمم في أخيه الذي فُجع به أنه كان محمودا حين ودعه.

✓ **المقطع الخامس: ٢٣-٢٨ :**

أَقُولُ وقد طار السَّنَـــا في رَبَابِهِ وجَوْنٍ يَسُحُّ الماءَ حَتَّى تَرَيَّعَا
سَقَى اللهُ أَرضاً حَلَّهَا قَبْـــرُ مالِكٍ ذِهَابَ الغَوَادِي المُدْجِناتِ فَأَمْرَعَا
وآثَرَ سيْلَ الوَادِيَيْـــــنِ بِديمـــةٍ تُرَشِّحُ وَسْمِيًّا منَ النَّبْتِ خِرْوَعا
فَمُجْتَمَعَ الأَسْدَامِ من حول شارع فروّى جِبَالَ القَرْيَتَيْنِ فَضَلْفَعَا
فو الله ما أُسْقِي البِـلاَدَ لِحُبِّهَـــا ولكِنَّنِي أُسْقِي الحَبِيبَ المُوَدَّعَا
تَحِيَّتَهُ مِنِّـــي وإِنْ كـــانَ نَائِيـــاً وأَمْسَى تُرَاباً فَوْقَهُ الأَرْضُ بَلْقَعَا

ففي هذا المقطع يلجأ الشاعر متمم إلى الدعاء بالسقيا لقبر أخيه وما حوله من مرابع؛ مفصلا لها بذكر أسمائها المعروفة، قائلا إنه لا يدعو لهذه المرابع والديار بالسقيا حبا لها، ولا وفاء لعهد معها، بل حبا لاخيه مالك؛ الذي أحبه بصدق، فرثاه بهذه القصيدة الباكية المفجعة، جامعا فيها بين الوداع لأخيه، وذكر ما اشتهر به من مآثر خالدة، خاتما بتحيته وإن شط المزار، وانقطعت به الدار، ويئس من لقائه حين غدا ترابا فوق بلقع من الأرض يباب.

✓ **المقطع السادس: ٢٩-٣٩ :**

تَقُولُ ابْنَةُ العَمْرِيِّ مالـــكَ بَعْدَما أَرَاكَ حَدِيثاً نَاعِمَ البَالِ أَفْرَعَا
فَقُلْتُ لَها طُولُ الأَسَى إِذْ سألتني ولوعة حُزْنٍ تَتْرُكُ الوَجْهَ أَسْفَعَا
وفَقْدُ بَنِي أُمِّ تَدَاعَوْا فَلَـــــمْ أَكُنْ خِلاَفَهُمُ أَنْ أَسْتَكِينَ وأَضْرَعَا
ولكِنَّنِي أَمْضِي عَلَـــى ذَاكَ مقدما إذا بَعْضُ مَنْ يَلْقَى الحُرُوبَ تَكَعْكَعَا
وغَيَّرَنِي ما غَالَ قَيْســـــاً ومالِكاً وعَمْراً وجَزْءاً بالمُشَقَّرِ أَلْمَعَا
وما غَالَ نَدْمانِي يَزِيـــدَ ولَيْتَنِي تَمَلَّيْتُهُ بالأَهْلِ والمَالِ أَجْمَعَا
وإِنِّي وإِنْ هازَلْتَنِي قد أصـــابني من البَثِّ ما يُبْكي الحَزِينَ المُفَجَّعَا
ولسْتُ إِذا ما الدَّهْرُ أَحْدَثَ نَكْبَةً ورُزْءًا بِزَوَّارِ القَرَائِبِ أَخْضَعَا
قَعِيدَكِ أَلاَّ تُسْمِعِينِي مَـــــلاَمَةً ولاَ تَنْكَئِي قَرْحَ الفُؤَادِ فَيِيجَعَا
فَقَصْرَكِ إِنِّي قد شَهِدْتُ فَلَمْ أَجِدْ بِكَفِّيَ عنهمْ لِلْمَنِيَّةِ مَدْفَعَا
فلاَ فَرِحاً إِنْ كُنْتُ يومـــاً بِغِبْطَةٍ ولا جَزِعاً مما أصاب فأوجعا

(١) ينظر: المبرد، الكامل: ج٤/ ص٦٥.

وقد خصص متمم هذا المقطع لمحاورة زوجه، وتحسّره لها على حاله، مبينا لها خلفيات حزنه ودوافعه وأسبابه، وهي محاورة تذكرنا بمحاورة أبي ذؤيب لزوجه (أميمه) إذ الأسئلة متشابهة إلى حد يقترب من التطابق، فالمرأتان حائرتان من التغير المفاجئ لحال زوجيهما، وكيف استبد بهما الحزن، فشحبت وجوههما بعد نضرة، حتى لينكرهما العارف لهما من قبل حين يراهما على حالهما الجديد، وقد جاءت إجابات الشاعرين لزوجيهما متشابهة جدا أيضا، إذ الأسى والحزن على فراق من يرثونهم هو سر تبدل حالهما، لكن التأسي عند الشاعرين يبدو متطابقا أيضا، فهما يرجعان إلى تاريخ الأمم السابقة ليؤكدا حقيقة أن الموت حق، وهو نهاية كل حي، مهما طال به الزمن، وهما –في النهاية– لا يظهران التضعضع أمام خطوب الدهر؛ بل الصبر والتجلد، كما أنهما لا يفرحان إن وانتهما الأيام؛ بل يظهران الحذر عند ذلك، ولا يعبآن بجميع تقلبات الزمان.

- ✓ **المقطع السابع: ٤٠-٥١ :**

فلو أَنَّ ما أَلْقى يُصِيبُ مُتالِعاً أَوِ الرُّكْنَ من سلْمَى إذن لَتَضَعْضَعَا
وما وَجْـــدُ أَظْآرٍ ثَلاثٍ رَوَائِمٍ أَصَبْنَ مجَرّا مِن حُوَارٍ ومَصْرَعَا
يُذَكِّرْنَ ذَا البَثِّ الحَـــزِينَ بِبَثِّهِ إذا حَنَّتِ الأُولَى سَجَعْنَ لها مَعَا
إِذَا شارِفٌ مِنْهُـنَّ قامت فرجعت حنينا فأَبْكَى شَجْوُها البَرْكَ أَجْمَعَا
بِأَوْجَدَ مِنِّي يـومَ قَـــامَ بمَالِكٍ مُنادٍ بَصيرٌ بِالفِرَاقِ فأَسْمَعَا
أَلَمْ تَأْتِ أَخبارُ المُحِـــلِّ سَرَاتَكُمْ فَيغْضَبَ منكم كلُّ مَنْ كانَ مُوجَعَا
بِمَشْمَتِهِ إِذْ صادَفَ الحَتْفُ مَالِكاً ومَشْهَدِهِ ما قَدْ رَأَى ثُمَّ ضَيَّعَا
أَآثَرْتَ هِدْمـــاً بالِيـــاً وسَـــوِيَّةٌ وجِئْتُ بِها تَعْدُو بَرِيداً مُقَزَّعَا
فَلاَ تَفْرَحَنْ يومـــاً بِنَفْسِـكَ إِنَّنِي أَرَى الموتَ وَقَّاعاً على مَنْ تَشَجَّعَا
لَعَلَّكَ يومـــاً أَنْ تُلِـــمَّ مُلِمَّـــةٌ عليكَ منَ اللاَّئي يَدَعْنَكَ أَجْدَعَا
نَعَيْتَ امْرَءًا لو كانَ لَحْمُكَ عندَهُ لآوَاهُ مَجْمُوعاً له أَو مُمزّعا
فلا يهنئ الوَاشِينَ مَقْتَـــلُ مالِكٍ فقد آبَ شانِيهِ إيابا فودعا

وهو مشهد أخير مركب من الحزن والأسى يلخص فيه متمم مقاطع قصيدته السابقة ويعمقها، مظهرا قدرا كبيرا من الجزع رغم رباطة الجأش، مقدما مستوى من التناص مع شعر الخنساء في رثاء أخيها صخر، مبالغا في تصوير فاجعته العظيمة بأخيه مالك؛ فهو حصنه الذي انهد، وملجؤه الذي انهار، ولو أن ما أصابه من فاجعة أصاب جبل طيء لضعف وانهدّ، فوَجْدُه وحُزنه على أخيه لا يقل عن حزن ناقة شارف فقدت حُوارها، فحنّت ورجّعت الحنين تأسفا عليه وجزعا، فكل ذلك الألم الذي أصابها لا يساوي شيئا أمام حزنه على قتل

أخيه (مالك)، متخلصا من ذلك بالتأسّي بتغيّر حال الزمان وتقلبها المفجع، وأن الموت عاقبة كل حي.

٦- نظرة مقارنة في العينيتين المدروستين:

تظهر القراءة التحليلية لهاتين القصيدتين الرثائيتين لأبي ذؤيب ومتمم بن نويرة أن بينهما بعض التداخل الأسلوبي الذي بدا حاضرا في نهجهما التفجعي العام، وإن كان متفاوتا بين مقاطعهما الشعرية. ويمكن أن نمثّل لهذا التداخل الأسلوبي بينهما من خلال توقفنا عند بعض مظاهره وتجلياته فيهما عبر مبحثين مختصرين عن "تسلسل الموضوعات وبناء المعاني"، و "أسلوب التكرار".

١- تسلسل الموضوعات وبناء المعاني:

لاحظنا من قراءة هاتين الرثائيتين الخالدتين في عيون قصائد الرثاء القديم وجود مستوى كبير من التشابه في بنائهما الفني والغرضي، فهما تبدآن بالتفجع على رحيل حبيب، ملك النفس والروح، وأثر فيهما غاية التأثير، حيا وميتا، ولم تستطع الأيام التي تعاقبت بعد رحيله أن تحيله إلى النسيان.

فأبو ذؤيب -مثلا- افتتح رثائيته في أبنائه بمطلع خصصه للاستفهام عن جدوى التفجع والتوجع من الموت، الذي هو جزء من ريب الدهر الذي لا يعتب أحدا، ولا يطلب رضاه، أما متمم فافتتح رثائيته لأخيه بمطلع بناه على القسم بأنه ما انشغل يوما من حياته بتأبين هالك، ولم يجزع أبدا من مصائب الزمان، الأمر الذي يؤكد تشابه المطلعين من حيث المعنى الذي سعى الشاعران إلى جعله مفتتح الرثاء في قصيدتيهما ومنطلقه، لكنهما بعد المطلع افترقت وجهتهما في الأسلوب، وإن اتفقت في الغرض العام، وهو إظهار الجزع الكبير والأسى العظيم على من يرثونهم.

فبينما انشغل أبو ذؤيب في بيته الثاني بمحاورة زوجه والرد على أسئلتها المستغربة تغير حاله، وشحوب وجهه بعد نضرة، دلف متمم إلى تعداد فضائل أخيه (مالك) الذي يرثيه بهذه الرثائية المبكية، وكأنه اختار أن تكون قصيدته من النوع البسيط؛ الذي يهجم فيه الشاعر -عادة- على غرضه من دون مقدمة أو تمهيد، وهو ما يسمى عند ابن رشيق بالبتر أو القطع[١].

وهكذا، فقد خصص متمم العشرين بيتا الأولى من عينيته الرثائية في أخيه لتعداد مناقبه وفضائله الحسنة النادرة؛ بحيث يستحيل مع تذكرها نسيانه؛ أحرى تخيّل السلوّ عنه بأي شخص كان.

---

(١) ابن رشيق: العمدة: ص٢٣١.

أما أبو ذؤيب فلم يختلف نهجه الشعري في عينيته الرثائية لأبنائه عن نهج متمم السابق كثيرا، فقد جعل هو أيضا من محاورة زوجه (أميمة) قنطرة آمنة عبر بها بإحكام وسلاسة إلى التفجع على أبنائه الذين هلكوا فجأة دفعة واحدة في لحظة هو في أشد الحاجة إليهم للعناية به في كبره، مخصصا ثلاثة عشر بيتا لوصف فاجعة رحيلهم المفاجئ، مبرزا أثره العميق في نفسه، معددا مظاهره المادية والنفسية.

وقد استغل "متمم" المقطع الشعري الأول من رثائيته لأخيه في التخلص إلى مقاطعها اللاحقة التي مثلت مستويات مختلفة من التعبير عن مأساة قتل أخيه؛ فخصص المقطع الثاني لطلب السقيا لقبر أخيه، بل وسقي جميع المرابع المحيطة به من أودية وسهول، ليختم بتوصيل التحية لأخيه وإن غدا كومة من تراب لا تسمع ولا تعي أحرى أن تجيب داعيا أو ترد عليه.

بينما نجد أبا ذؤيب خصص بقية مقاطع قصيدته بعد مقطعها الأول لعرض قصص ثلاث تعكس عبثية البحث عن النجاة والسلامة من الموت، فكل حي نهايته الفناء، ولن يرد الموت سلطان ولا قوة أو سلاح، بينما خصص متمم المقطع الثاني من قصيدته لمحاورة زوجه، والرد على أسئلتها التي تتطابق إلى حد بعيد مع أسئلة زوج أبي ذؤيب. وقد غلب الأسى والبكاء على ردود متمم على زوجه، وهي ردود لا تختلف كثيرا عن ردود أبي ذؤيب على زوجه، كما أسلفنا.

أما المقطع الأخير فخصصه متمم لرسم واقع الأسى الدائم الذي يعيشه منذ موت أخيه، مستفيدا في هذا المقطع من شعر الخنساء في رثاء أخيها صخر، موظفا نبرة أسلوبها الباكي الحزين الذي نهجه الشعراء بعدها، واستفادوا من توظيفه في بناء المعاني المعبرة عن الفجيعة وأحاسيس النفس المهمومة.

يقول متمم:

وما وَجْدُ أَظْآرٍ ثَـــــلاثٍ رَوَائِـمٍ أَصَبْنَ مجَرًّا مِن حُوَارٍ ومَصْرَعَا
يُذَكِّرْنَ ذَا البَثِّ الحـــــزِينَ بِبَثِّهِ إذا حَنَّتِ الأُولَى سَجَعْنَ لها مَعَا
إِذَا شارِفٌ مِنْهُنَّ قامت فرجعت حنينا فأَبْكَي شَجْوُها البَرْكَ أَجْمَعَا
بِأَوْجَدَ مِنِّي يومَ قـــامَ بمـــالِكٍ مُنادٍ بَصيرٌ بِالفِرَاقِ فأَسْمَعَا

فقد أشار في هذه الأبيات إلى أبيات للخنساء في رائيتها الشهيرة في رثاء أخيها صخر، وقد ذكر أبو العباس المبرد في كتابه (الكامل) أنها: (مما ندر من شعر الخنساء)[1]، ومنها:

وما عَجُولٌ علــى بَوٍّ تُطيـــــفُ بِهِ لها حَنينانِ : إعْلانٌ وإسْرارُ
تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ ، حتـــــى إذا ادّكرَتْ فإنَّما هيَ إقبالٌ وَإدبارُ
لاَ تسمنُ الدَّهرَ في أرضٍ وَانْ رتعتْ فإنَّما هيَ تحنانٌ وَتسجارُ
يوْماً بأوْجَدَ منّـــي يـــوْمَ فارَقنـــي صخرٌ وَللدَّهرِ إحلاءٌ وَإمرارُ [2]

ففي أبيات متمم السابقة ظلال واضحة لأبيات للخنساء التي وردت بعدها، مما يعني أن متمما حرص على خلق مستوى من التناص مع أبيات الخنساء في رثاء أخيها صخر، وذلك طلبا لعمق المعنى، وقوة التأثير، وحرارة الرثاء، وكلها أمور كادت أن تطبع شعر الخنساء عامة، ورثاءها صخرا خاصة.

وعموما، يمكننا القول إنه قد غلبت النزعة السردية على متمم في رثائيته العينية لأخيه، فانشغل في عامة أبيات قصيدته بسرد مآثر أخيه (مالك) فتحدثت عنه أغلب مقاطعها، ولم يبرح يعدد مناقبه، ويذكره باسمه، متفجعا عليه، حتى يحاول التأسي عنه، دون جدوى، ليعود إلى تذكره، وتعداد مآثره، وسرد شمائله، وهكذا دواليك، حتى انتهت القصيدة بمعاهدته أخيه على مواصلة الحزن عليه ما تعاقب الجديدان.

أما أبو ذؤيب فغلبت على عينيته الرثائية لأبنائه النزعة القصصية منذ تخلصه من مقطعها الشعري الأول، فانشغل في مقاطعها الأخرى يعرض قصصا تبدو مختلفة، رغم أنها متداخلة المحتوى، متحدة الفكرة؛ فهي عرض مفصل لحتمية الموت، وتبيان لتعقبه كل حي؛ مهما كان ذا عُدة وعتاد، أو كان ضعيفا لا قوة له.

---

(١) المبرد: الكامل في اللغة والأدب: ج٤/ ص٤٠.

(٢) الخنساء: الديوان: ص٣٥.

٢- أسلوب التكرار:

وهو ظاهرة بديعية عتيقة، تنبه إليها النقد العربي القديم، فعدَّها "السجلماسي" -مثلاً- «جنساً عالياً، واسماً لمحمول يشابه به شيءٌ شيئاً في جوهره المشترك لهما»[١]. ووزعها إلى تكرير لفظي، وآخر معنوي؛ لأن الشاعر «إما أن يُعيد اللفظ، وإما أن يُعيد المعنى، فإعادة اللفظ هو التكرير اللفظي، وهو المشاكلة، وإعادة المعنى هو التكرير المعنوي، وهو المناسبة»[٢].

وقد عني الشعراء بأسلوب التكرار منذ أقدم عصورهم، وحرصوا عليه طلبا لوظائف فنية متعددة، لعل من أهمها: تأكيد المعاني الشعرية التي ينشدونها. ويظهر استقراؤنا للقصيدتين المدروستين أن أبا ذؤيب ومتمما عنيا فيهما بنوعين من التكرار هما: تكرار اللفظ، وتكرار الجملة.

فأبو ذؤيب -مثلا- كرر في عينيته الرثائية لبنيه جملة (والدهر لا يبقى على حدثانه) ثلاث مرات، أولاها في البيت (١٦) حين تخلص -من المقطع الأول في قصيدته- من حزنه على أبنائه ببيت صدّره بهذه الجملة قائلا:

والدَّهْرُ لا يبقى على حدثانه جَوْنُ السَّرَاةِ لهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ

وفي البيت (٣٧) كرّر أبو ذؤيب صدر البيت السابق للتخلص من وصف معركة الحمار الوحشي مع الصياد وكلابه المدربة إلى وصف معركة أخرى تعكس جزءا من الصراع من أجل البقاء؛ إنها معركة الثور الوحشي مع الرماح التي تترصّده، والكلاب التي تطارده.. يقول أبو ذؤيب:

والدَّهْرُ لا يبقى على حدثانه شببٌ أفزّته الكلابُ مُروَّعُ

أما التكرار الثالث لصدر البيت السابق فقد جاء في المقطع الأخير من قصيدة أبي ذؤيب، إذ كرره في البيت (٥١) متخلصا به من معركة الثور مع الكلاب إلى وصف معركة ثالثة لا تقل شراسة عن سابقتيها، لكنها بين فارسين بطلين قتل كل منهما صاحبه.. يقول أبو ذؤيب:

والدَّهْرُ لا يبقى على حدثانه مُستشعِرٌ حِلَقَ الحديدِ مُقَنَّعُ

---

(١) السجلماسي: المنزع البديع، (ص ٤٧٦). وانظر أيضاً : ابن رشيق: العمدة: ج٢/(٦٨٣)، إذ نراه يعدد المواضع التي يحسن فيها التكرار، وهي حسب رأيه: "التشوق والاستعذاب في الغزل" أو "على سبيل التقرير والتوبيخ في الهجاء.. أو على سبيل التعظيم في المدح". راجع الصفحات: (٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧) منه.

(٢) السجلماسي: المنزع البديع، (ص ٤٧٦).

فقد أفاد تكرار جملة: (والدَّهْرُ لا يبقى على حدثانه) في الأبيات الثلاثة السابقة تأكيد حتمية فناء كل حي في هذه الحياة، مهما كان قويا محصّنا، ومدافعا عن نفسه بكل قوة وشجاعة واستبسال، هذا فضلا عن أن الشاعر جعل تكرار هذه الجملة لازمة للانتقال من معنى إلى آخر؛ إذ مثلت تخلّصا سلسا من مقاطع هذه القصيدة إلى بعضها، وقد اتفقت جميعها –رغم اختلافها الظاهر– في رسم صورة معبرة عن البكاء والحزن، ومحاولة التأسّي بقصص الهالكين الغابرين لتأكيد حتمية الفناء رغم محاولات النجاة من الموت، عبر تعدد وسائل مقاومة الأخطار المحدقة بالحياة.

أما الشاعر متمم بن نويرة فقد استخدم –أيضا– تكرار اللفظ والجملة في عينيته الرثائية لأخيه، فكرر اسمه (مالكا) ثماني مرات في ثمانية أبيات متفرقة، أولها البيتان (١١) و(١٢) اللذان يقول فيهما:

فَعَيْنـــــيَّ هلاَّ تَبْكِيانِ لِمَالِكٍ إِذَا أَذْرَتِ الرِّيحُ الكَنِيفَ المُرَفَّعَا

وللشَّرْبِ فَابْكِي مالِكاً ولِبُهْمَةٍ شديدٍ نَوَاحِيهِ على من تشجّعا

فقد كرر الشاعر في بيتين متواليين اسم أخيه الذي يندبه، ويبكيه تحسّرا، وتفجعا عليه، وربما تلذّذا باسمه وتأسّيا به، ليرجع إلى ذكر اسم أخيه مرة أخرى في البيت (١٦) في سياق الفخر بكرم خلاله، قائلا:

وإنْ شَهِدَ الأَيْسَارَ لم يُلفَ مالكٌ على الفَرْثِ يَحْمِي اللَّحْمَ أَنْ يَتَمزَّعَا

ليعود إلى ذكره أخيه باسمه مرة أخرى في البيت (٢١) قائلا في سياق التفجع عليه:

فلمّا تفرّقنا كأنّي ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وفي مقطع شعري آخر من قصيدته خصصه متمم للتضرع والدعاء لأخيه لا يجد متمم بدا من ذكر أخيه باسمه مرة أخرى، فيقول:

سَقَى اللهُ أَرضاً حَلَّهَا قَبْرُ مالِكٍ ذهَابَ الغَوَادِي المُدْجِناتِ فَأَمْرَعَا

وفي مقطع شعري آخر يبالغ متمم في تصوير حزنه على أخيه مالك، قائلا إنه أشد حزنا عليه من حزن ناقة شارف تحن تفجعا على حُوارها الميت، فيذكر اسمه مرتين في أبيات أربعة فيقول:

إِذَا شارِفٌ مِنْهُنَّ قامت فرجعــت حنينا فأَبْكَى شَجْوُها البَرْكَ أَجْمَعَا

بِأَوْجَدَ مِنِّي يومَ قـــامَ بمـــالِكٍ مُنادٍ بَصيرٌ بِالفِرَاقِ فأَسْمَعَا

أَلَمْ تَأْتِ أَخبارُ المُحِلِّ سَـــرَاتَكُمْ فَيغْضَبَ منكم كلُّ مَنْ كانَ مُوجَعَا

بِمَشْمَتِهِ إِذْ صادَفَ الحَتْفُ مَالِكاً ومَشْهَدِهِ ما قدْ رَأَى ثُمَّ ضَيَّعَا

أما خاتمة هذا المقطع الباكي الحزين فكانت بيتا لخّص فيه متمم حزنه على أخيه، منهيا قصيدته بذكر أخيه باسمه قائلا:

فلا يهنئ الوَاشِينَ مَقْتَلُ مالِكٍ فقد آبَ شانِيهِ إيابا فودعا

وهكذا، فقد وظف الشاعران أسلوب التكرار في قصيدتيهما توظيفا متفاوتا، لكن أثره في المعاني الشعرية عندهما واضحا ومتقاربا، ليؤكدا لقارئ شعرهما أن «عملية التكرار هي أكثر من عملية جمع، هي عملية ضرب، فإن لم تكن كذلك، فهي وليدة ضرورة لغوية أو مدلولية، أو توازن صوتي، أو هي تجري لملء البيت والبلوغ به إلى منتهاه»[١].

(١) الطرابلسي: خصائص الأسلوب في الشوقيات: (ص٦٢) .

الخاتمة

نستخلص من هذه القراءة التحليلية المقارنة لمفضلتي أبي ذؤيب ومتمم بن نويرة العينينين الرثائيتين جملة ملاحظات نوجز أهمها فيما يأتي:

١- أن شعر الرثاء قديما غلبت عليه السردية والحكمة؛ فتعددت أساليبه رغم وحدة موضوعه؛ فاختلف الشعراء في بناء نصوصه، بين مستطرد لمعاني الحزن، وصائغ لها وفق أسس فنية، تعبر عن جزعه العميق على من يرثيه.

٢- تعد هاتان الرثائيتان من أشهر عيون قصائد الرثاء القديم، وقد أثنى عليهما نقاد العرب القدماء، وجعلاهما رأس قصائد الرثاء بلا منازع.

٣- بلغت الأهمية الأدبية لعينية أبي ذؤيب عند علماء الأدب قديما أن قدمته على غيره من الشعراء فجعلته معدودا في الشعراء الفحول، رغم قلة شعره؛ مما يعكس قيمتها الفنية الأثيرة عند النقاد والأدباء الأقدمين.

٤- جمعت هاتان الرثائيتان بين أسلوبي السرد والقصص، فتميّز (متمم) بالسرد في رثائيته، بينما غلبت القصص الشعرية على رثائية أبي ذؤيب، واستطاع الشاعران بهذين الأسلوبين الشعريين أن يمنحا رثاءهما حرارة ظاهرة، وشاعرية مشهودة، وتميزا منقطع النظير، وهي أمور فنية مهمة، أكسبت هاتين الرثائيتين الخلود في قائمة نصوص الرثاء الرائعة الجميلة.

٥- تميزت عينية أبي ذؤيب بمعجمها القاموسي الثري، ولغتها الجاهلية التي جمعت بين الجزالة والغرابة، فعبرت بجلاء عن فحولة أبي ذؤيب، ونزعته الشعرية الجاهلية؛ فاستخدم فيها الكثير من الألفاظ البدوية الموغلة في الغرابة اللغوية، والانتماء للمعجم الجاهلي المهجور.

٦- استطاع الشاعران (أبو ذؤيب) و(متمم) في هاتين الرثائيتين أن يتجاوزا بإبداع فني نادر مسالة الرثاء التقليدي إلى بناء فلسفة عميقة تفهم الحياة فهما مزدوجا يجمع بين الجزع من الفناء، والسعي بكل قوة نحو البقاء، والنجاة من الموت، رغم الإيمان العميق بحتمية فناء كل حي، وإن كان الجزء الأكبر من هذه الفلسفة وضعه أبو ذؤيب، إلا أن (متمما) عمّق المعاني الرثائية لأبي ذؤيب، وزادها تفصيلا وتأكيدا.

ثبت المصادر

- ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ) : أسد الغابة في معرفة الصحابة: تحقيق: علي محمد معوض- عادل أحمد عبد الموجود، (ط١/: دار الكتب العلمية: ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
- الأسد (ناصر الدين): مصادر الشعر الجاهلي ، ط٧/ ١٩٨٨م، دار المعارف بمصر.
- الأصمعي: أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (المتوفى: ٢١٦هـ): فحولة الشعراء: تحقيق: المستشرق: ش. تورّي، قدم لها: الدكتور صلاح الدين المنجد، (ط٢/ دار الكتاب الجديد، بيروت – لبنان، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- البغدادي: عبد القادر بن عمر (المتوفى: ١٠٩٣هـ) : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط/ ٤: ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري: لباب الآداب: تحقيق: أحمد حسن لبج، (ط١/ دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م).
- الخاني (أحمد): القصة الشعرية لدى أبي ذؤيب الهذلي، مقال منشور في الانترنت على الرابط الآتي :

https://www.alukah.net/sharia/0/87124/#ixzz752V1dGgD

- الخنساء: الديوان الشعري، نسخة إلكترونية.
- أبو ذؤيب الهذلي: الديوان الشعري، نسخة إلكترونية.
- ابن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (ط٥/ دار الجيل-بيروت ١٤٠١هـ-١٩٨١م).
- الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الأعلام: (ط١٥/ دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م).
- أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب: تحقيق: علي محمد البجادي، ط/ نهضة مصر.
- أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب: شرح : د. علي حسن، و: د. شجيع فرجاني، مراجعة: أ. د. حمزة عبد الله النشرتي، (ط١/ شركة القدس، القاهرة، ٢٠١٢م).
- السجلماسي : (القاسم، أبو محمد): المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع: تحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط/١٩٨٠م.

- ابن سلام الجمحي: محمد بن سلّام (بالتشديد) بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٣٢هـ) : طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، (ط/ دار المدني – جدة).
- شُرَّاب: محمد بن محمد حسن شراب: شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية «لأربعة آلاف شاهد شعري»، (ط١/ مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م).
- الشنطي: (محمد صالح): فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه، (ط٥/: دار الأندلس للنشر والتوزيع – السعودية / حائل، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.
- الطرابلسي: (محمد الهادي): خصائص الأسلوب في الشوقيات: منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨١م.
- الطيب: (عبد الله): المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: (ط١/ الدار السودانية، الخرطوم، دار الفكر، (د.ت).
- ابن عبد ربه: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ) : العقد الفريد، (ط١/: دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٤هـ).
- أبو الفتح العباسي: المؤلف: عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، (المتوفى: ٩٦٣هـ): معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: عالم الكتب – بيروت.
- القالي: أبو علي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان، القالي (المتوفى: ٣٥٦هـ): الأمالي = شذور الأمالي = النوادر: عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، (ط٢/ دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م).
- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) : عيون الأخبار: (ط/ دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤١٨هـ).
- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري (المتوفى ٢٧٦هـ): الشعر والشعراء: تحقيق: أحمد محمد شاكر، (ط/ دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ).
- مجموعة مؤلفين: أصول البحث الأدبي ومصادره، منشورات جامعة المدينة العالمية.
- المبرد: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ) : الكامل في اللغة والأدب: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط٣/ دار الفكر العربي – القاهرة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م).
- المفضل الضبي: المفضليات، "ط١/ دار المعارف" ، مصر.

- ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق البغدادي المعتزلي الشيعي المعروف بابن النديم (المتوفى: ٤٣٨هـ) : الفهرست: المحقق: إبراهيم رمضان، ط٢/ دار المعرفة بيروت – لبنان، ١٤١٧هـ /١٩٩٧م).
- نورة الشملان : أبو ذؤيب حياته وشعره، الطبعة الأولى، د.ت.
- النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب: (ط١/ دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ).
- ابن نويرة (متمم): الديوان الشعري، نسخة إلكترونية.
- ياقوت الحموي: (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، المتوفى: ٦٢٦هـ) : معجم الأدباء=إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: تحقيق: إحسان عباس، (ط١/ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م).